مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

تطاول المنافقين على الثوابت

د. سعيد بن ناصر الغامدي

الأعمال الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تطاول المنافقين على الثوابت

المقدمة وتحتوي:

أولاً: أهمية الموضوع وضوابطه وحدوده.

ثانياً: تحديد المصطلحات:

أ- التطاول.

ب- المنافقون.

ج- الثوابت.

د- ثالثاً: مستويات تطاول المنافقين على الثوابت.

١- المستوى الأعلى (المستوى المرجعي).

أ- الوحي والنبوة في ذاتهما.

ب- القرآن

ج- السنة

د- الصحابة.

هـ - القرون الفاضلة.

و- اللغة العربية.

ز - فهم العلماء المعتبرين.

٢-المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

أ- الإعتقادي (أركان الإيمان الستة).

ب- التشريعي.

ج- العبادي.

٣- المستوى الرأسي (المستوى العملي).

أ- الأخلاقي.

ب- الانتمائي والولائي.

المقدمة

أولاً: أهمية الموضوع وضوابطه وحدوده:

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا خليل الله محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

ففي هذه الأسطر نبذ سريعة ترصد شيئاً من تطاول أهل الفكر المادي وتلامذته على ثوابت الإسلام وقضاياه الكبرى، تؤكد خطورة ظاهرة النفاق والمنافقين.

وفي هذا البحث جملة من النقول المتطاولة على ثوابت ديننا - وليس نقلها - بالضرورة وصف لقائليها بالنفاق أو الكفر- وإن كانت النصوص ذاتها دالة على ذلك، عملاً بقاعدة أهل السنة والجماعة في (التفريق حين الحكم بين القول وقائله والفعل وفاعله؛ لأن الحكم بالعموم والإطلاق غير الحكم بالتعيين والتخصيص)، كما أن بعض النصوص صريحة في الكفر وكان حقها أن تذكر في شواهد الردة، ولكني أتيت بها هنا من جهة أن أصحابها مع بشاعة وشناعة ما قالوا يدعون أنهم من أهل الإسلام، ويريدون الجمع بين المتناقضات، وفي الوقت ذاته لا يريدون أن يكشف زيفهم وتناقضهم أحد، فإن فعل قالوا: (تكفيري جامد نصوصي) وهم أتوا بالعظائم وجهروا بأبشع المآثم.، وحالهم – في تقليدهم لأساتذتهم الغربيين – حال من يقول: نحن ننتقد الدين

والوحي والنبوات مثلما تفعلون، ونسلك في التهوين من الدين كما تسلكون، ونبتعد عن معاييره وضوابطه ومحكماته وأحكامه وتشريعاته كما تبتعدون، ونرى أن من حرية الأديب والمفكر أن ينتقد المجتمع وعقائده وقيمه كما قررتم في مبادئ الحرية، ونعتقد أنه لا يكون مبدعاً ولا متطوراً إلا إذا مارس ذلك بحرية مطلقة كما تمارسون.

بيد أن هناك فرقاً جوهرياً بين الأساتذة الغربيين والأتباع من أبناء المسلمين. وهذا الفرق هو أن الغربي إذا قيل: أنت كافر؛ بالنصرانية واليهودية وبالله رب العالمين، أعترف بذلك وأقر، ولم يجد في هذا الإقرار سوى تحصيل الحاصل وتقرير المقرر، أما الأتباع من أبناء البلدان الإسلامية إذا فاه أو كتب أحدهم ما يناقض الدين، ثم قيل له: هذا كفر، وخروج من دين الإسلام وردة؛ صاح مستنكراً، وصرخ مستجيراً، واستدعى الحكام، وسلَّ الأقلام، وسخر الإعلام لِسحق من كشف حقيقته. إن الواحد من هؤلاء يريد أن يمارس الكفر ويدعو له، ويريد في الوقت ذاته أن يعيش آمناً ويحيا بين المسلمين -الذين ينال من أعز شيء عندهم- وله سمعة طيبة ومنزلة حسنة، إنه يريد، كشأن أهل النفاق دائماً، أن يتخذ من انتسابه للإسلام جداراً عازلاً يقاتل من خلفه ويحتمي به.

وقد نقلت هنا شيئاً من هذا الغثاء الزائف من أجل تأكيد خطورة قضية العدوان على الثوابت وبشاعة جريمة التطاولات عليه، وأن خطورتها تتمثل في أنها ليست انفصالاً عن الإسلام والإيمان فحسب، بل ومناقضة لذلك تمام المناقضة، بل إنها في أوليات منطلقاتها تسعى لنقض الإسلام وتهدف إلى هدم الديانة، وخاصة عندما ننظر إلى تلك المذاهب والتوجهات التي يقوم نسيجها الفكري على كل شيء سوى الإسلام، وفي داخل أدغالها وسراديبها ومتاهاتها يجد الفاحص أصوات السقوط الاعتقادي، ونظرات السلخ الفكري، ونظريات الكفر والإلحاد، أنفاس لاهثة، ونفوس هائمة، وقلوب مظلمة، وأفكار جاهلية، تقوم أساساً على إدانة الدين، ورفض الحق والخير والهدى والرشاد، وتبرير الجهل والانحطاط، وتسويغ الردة والضلال .

فخاخ منصوبة نُسجت أحابيلها من قصائد ودراسات نقدية ومقالات وقصص وروايات، يقع في شراكها حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، زائغو القلوب والعقول، أتباع الشهوات، أرباب الشهوات .

ادّعوا أنهم جاؤوا من أجل التقدم والنهضة والرقي، فإذا هم ليسوا سوى طلائع عدو، وإفرازات عداوة، وإرهاصات حرب شاملة .

يحملون أسماء المسلمين من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، لكن عقائدهم غير عقائد المسلمين، وأفكارهم تناقض جوهر الدين الحنيف

دين الإسلام، وطموحاتهم في إزالته من الوجود أو تهميشه، من خلال المهاجمة الواضحة لدين الله والاستخفاف الجلي بالله العظيم - جَلَّ وَعَلاَ - وتقبيح الوحي المعصوم، وتشويه الاستمساك بالوحي، وتزييف حقائق الدين - والدين كله حقائق -، ومقاومة قواعده وأصوله، كل ذلك في تبجح ظاهر، وجرأة وقحة، وسفاهة معلنة: {هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} [المنافقون:٤].

والموضوع واسع الأرجاء، وقد وضعت خطته المفترضة المذكورة آنفاً وكتبت في أهم القضايا وهي: (الوحي والنبوة وأركان الإيمان الستة) وتركت الباقي لضيق مساحة المتاح في هذا المقام.

ثانياً: تحديد المصطلحات:

أهمية تحديد المفاهيم والمصطلحات:

كثرت فتن هذا الزمان وتعاظمت وتفاقمت، ومن أخطرها فوضى المصطلحات والمفاهيم، التي وصل التباسها حتى إلى بعض دعاة الإسلام وطلاب العلم فيه، وهذا مصداق قول حذيفة: «ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الفتن». أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٤٧٥، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٤.

وقد وضع رضي الله عنه وهو الخبير بشأن الفتن، معياراً لذلك فقال: «إذا أحب أحدكم أن يعلم: أصابَتْه الفتنة أم لا؟ فلينظر! فإن كان رأى حلالاً ما كان يراه حراماً فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالاً فقد أصابته». أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ٤/ ٥١٤ ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٧٤والحلية ١/ ٢٧٣.

وفي الحـديث عن معاذ مرفوعاً: «أنها ستكون فتنة، فقال: فكيف لنا يا رسول الله وكيف نصنع؟ قال: ترجعون إلى أمركم الأول». ذكره في مجمع الزوائد ٧/ ٣٣. وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الله بن صالح، وقد وثق وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح

وعن أبي أمامة مرفوعاً: «ستكون فتنة، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً؛ إلا من أحياه الله بالعلم». أخرجه ابن ماجة ٢/ ١٣٥. والدارمي ١/ ١٩. وفي إسناده ضعف كما في مصباح الزجاجة ٤/ ١٧.

ومصداق ذلك في قوله – تعالى –: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِئَايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٣]، والمطلوب أمام هذا اللبس والالتباس بيان الحق وإظهار الحقيقة وكشف الشبهة وقطع اللبس وبيان الزيف .

والسؤال المهم في هذا المقام: من المستفيد من تذويب المفاهيم والمصطلحات وعدم تحديدها؟

ولعلنا نجد جواباً في سوق سعار الفكر البرغماتي والمادي القائم على مفاهيم نفاقية (الوصول للكسب بأي طريقة) و (إظهار ما لا يستبطن) و (تطبيق معايير مزدوجة) و (النسبية الأخلاقية).

لقد قال نعوم تشومسكي: (المنافقون هم الذين يطبقون على غيرهم معايير يرفضون تطبيقها على أنفسهم)، انظر كتاب هيمنة الإعلام لتشومسكي ص٧٢ (١) .

التطاول:

في اللغة: تطاول الرجل على فلان تكبر وترفع واعتدى.(محيط المحيط ٥٦١).

ومن الشعر قول ابن حيوس:

كالدوقس المغـرور ظن بجهلــه أن الوِهاد تطــاول الآكاما

وقول المعري:

كسرى أصاب الكسر جابر ملكه والقصر كر على تطاول قيصر

وقول أبي هلال العسكري:

ولا تتجاهل إن منيت بجـاهل فليس فساد الجاه إلا التجاهل

ولا تتطاول إن تطاول أحمق فرأس حماقات الرجال التطاول

ويراد بالتطاول هنا: (الاستكبار عن قبول أمر الله أو تصديق خبره، أو رد ذلك، أو الاعتراض عليه بالباطل، أو ممارسة التشكيك فيه، أو السخرية منه).

وقد وصف الله هذه الحالة في القرآن في غير ما آية، من ذلك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء:١٧٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٢١].

شرح المفهوم:

الاستكبار: من الكبر وهو التعالي علماً أو عملاً، فكل من لم يسلم لشرع الله تسليماً كاملاً ففيه نوع من الاستكبار يقل أو يكثر.

قبول أمرالله وخبره: شرط لصحة الإيمان ووحي الله إما خبر يجب تصديقه وإما أمر بالفعل أو الترك يجب امتثاله (وتمت كلة ربك صدقا وعدلا).

أو رد ذلك: أي ترك أحكام الله وجحد أخباره ضلالاً في ذات نفسه.

أو الاعتراض عليها: أي أنه يتعدى في تركه وجحوده ليضل غيره بذلك.

بالباطل: فكل مستكبر أو راد أو معترض على أمر الله وخبره هو بالضرورة مبطل و إن سمى عمله (ثقافة أو فلسفة أو علماً أو سياسة أو عصرنة أو فكراً) أو غير ذلك؛ إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

ممارسة التشكيك: أي أنه يعرض أحكام الله وأخباره على سبيل الارتياب والشك فيها.

أو السخرية: أي الاستهزاء بشيء من دين الله تعالى .

ويخرج من هذا المفهوم كل من قبل بشرع الله وخبره جملة وعلى الغيب، وسلم بذلك تسليماً حقيقياً، وإن حصل منه رد أو اعتراض

بسب تأويل محتمل أو شبهة أو تقليد. ولا يستثنى من ذلك إلا ممارسة التشكيك والاستهزاء؛ فإن ذلك مبني في الغالب على الاستخفاف والتدنيس.

المنافقون:

جمع منافق: ومن تعريفات العلماء السابقين يتضح أنهم يعرفونه بإظهار الإسلام وإبطان خلافه، ربطاً بين الأصل اللغوي والاستعمال الشرعي وإن تنوعت عباراتهم في التعبير عن ذلك، ومنه: قوله في القاموس المحيط: (ونافق في الدين: ستر كفره وأظهر إيمانه). القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادي ج ٣ ص٢٩٦.

ويقول الإمام ابن تيمية: (والمقصود هنا أن الزنديق في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره، سواء أبطن ديناً من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلاً جاحداً للصانع والمعاد والأعمال الصالحة). مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ٧ ص٤٧١.

ويقول الإمام ابن القيم في تعريف النفاق: (وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس يهديهم بإذنه وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه). صفات المنافقين لابن القيم ص١٥-١٦.

وكل هذا مبني على الصلة بين التعريف الاصطلاحي الشرعي، والتعريف الشرعي واللغوي، وهي صلة واضحة، فالمنافق يشبه نفاق اليربوع وخداعه للصياد .

يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، موضحاً الصلة بين المعنى الشرعي والمعنى في أصل اللغة:(ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج منه أويخرج هو من الإيمان في خفاء، ويمكن أن الأصل في الباب واحد وهو الخروج). معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٥ ص٤٥٤.

ويقول صاحب لسان العرب في الصلة بين المعنى الشرعي واستعمالات العرب لهذا اللفظ: (والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر مشتق من نافقاء اليربوع إسلامية، وقد نافق منافقة ونفاقاً، وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً، يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقاً، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره) لسان العرب لابن منظور ج ١. ص ٣٥٩.

ويقول الإمام ابن تيمية كذلك في الصلة بين المعنى اللغوي والشرعي: (ولفظ النفاق من هذا الباب فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه، وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين ثم إبطان ما يخالف الدين) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ١١ ص١٤٣.

وهكذا تظهر الصلة واضحة من خلال التعريفات وكلام العلماء وأهل اللغة في الربط بين المعنيين، فكأن المنافق قد جعل الكفر عقيدته، ولكنه عندما يوضع أمام الحقيقة يهرب ويخرج من مخرج الإيمان، فكأنه اليربوع في تصرفه، فاليربوع اتخذ بيتاً في الأرض له عدة أبواب أو مخارج فكلما حاول الصياد إمساكه من ناحية خرج من الناحية الأخرى، وهذا كلما حاول المسلمون وكادوا أن يكتشفوا أمره كان له عدة مخارج يخرج منها.

وكما بيّن صاحب اللسان أن هذا الاسم لم يعرف إلا في الإسلام، وإن كان أصله اللغوي معروفاً قبل ذلك، ولكن لما أتى الإسلام عرفت هذه الطائفة بهذا الاسم للمشابهة القوية بين الاصطلاحين.

هذا هو حد النفاق لغوياً وشرعياً ووجه المناسبة والربط بينهما.

والنفاق (بحسب اجتهادي) هو:

(إظهار الإسلام قولاً أو عملاً مع إبطان الشك في محكماته وثوابته،

أو الاستكبار على شرع الله، أو التكذيب، أو البغض لشيء ثبت عن الله تعالى، أو السخرية بشيء من ذلك).

الثوابت:

أ- المراد بها:

جمع ثابت وهو:

الراسخ المستقر المقيم على أمر لا يتغير.

والثبات فيه معنى الديمومة والاستمرار والملازمة والبقاء، وفي القرآن: {كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ} [إبراهيم: ٢٤]، و {يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ } [إبراهيم: ٢٧]، وفيه {يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ} [الرعد: ٣٩] وفيه {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ} [البقرة: ٢٦٥] وفيه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء: ٦٦].

معنى الثابت في الاصطلاح

لم يرد هذا المصطلح بمعناه المتداول اليوم، وإنما ورد في مجال صحة النقل فيقال: نص ثابت أو غير ثابت، وفي مجال النظر فيقال: قضية ثبوتية، وفي مجال القضاء والفقه فيقال: حكم ثابت وقضية ثابتة ونحو ذلك.

أما الثوابت بالمعنى المستخدم اليوم فيأتي في مواضعات العلماء السابقين بإطلاقات منها: (الإجماع) ومنها (المعلوم من الدين بالضرورة) وقد تسمى الأصول / أو الكليات / أو المحكمات.

وهو ذلك القدر الذي يمثل دين الإسلام ويمثل هويته وحقيقته، بحيث لا يتصور إسلام بدونه، وهذا القدر يمكن ـ باطمئنان ـ أن تطلق عليه (الثابت).

ب- أمثلة الثابت:

وذلك كإجماعهم على وجوب الصلاة والزكاة والحج وصيام رمضان (وليس شوالاً ولا محرماً مثلاً) وأن الوضوء شرط للصلاة، وأنه قبلها (وليس بعدها كما يمكن أن يوصل إليه التحليل اللغوي للآية) وأن البيع حلال والزواج حلال، وأن هناك أحكام للإيلاء، والظهار والطلاق والقصاص والحدود، وغير ذلك من مستويات الإجماع حتى يصل إلى أن الطواف إنما هو بجبل البيت عن يسار الطائف، وأن البدء يكون بالصفا

وأن النبي ﷺ مدفون في المدينة، وأن القبلة هي الكعبة، وأن السرقة والزنا والربا والقتل والعدوان والخمر والخنزير والميتة حرام.

وان الحكم بما أنزل الله فريضة، وأن السنة أصل واتِّباعها واجب، وأن الزيادة في الدين ما ليس منه كالانتقاص منه؛ كلها محرمة.

وان العدل واجب والحق لازم والأخلاق الفاضلة لازمة ثابتة.

المتغيرات:

١- تعريفها:

المتغير: اسم فاعل من تغير الخماسي، ومعناه تحول، ويقال: غيّره: إذا جعله غير ما كان، وحوّله، وبدّله، وفي التنزيل: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]. وفيه: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}. [الأنفال: ٥٣].

التغير في الشريعة الإسلامية هو:

ما كان محل ظن ونظر. والظن: إدراك الطرف الراجح، والنظر: ترتيب أمور معلومة للتوصل بها إلى مجهول، فهو مكون من مقدمات قد تكون ظنية تحتاج إلى إقامة دليل وبيان جهة دلالته، ومن هنا يمكن مناقشة الدليل، ويمكن مناقشة دلالته على المدلول، وكل ذلك يخرج المسألة من حد الثبات إلى حد التغير.

ومساحة كل النظر في الشريعة قليلة في أصول الأبواب، كثيرة في فروعها، فالثابت في جملة الواجبات والمحرمات كبير، ولكن في فروعها المتغير هو الكبير.

فيمكن أن نقول: إن الفروع الخارجة عن الإجماع ـ والتي هي محل نظر وتفكر ـ تمثل جزءاً من المتغير.

والثابت والمتغير اصطلاحان حديثان سريا في كلام أهل الشريعة من قبل الأدباء، حيث تكلموا في الأدب عن الثابت والمتحول، وعبر بعضهم عن ذلك بالثابت والمتغير، وتوسع آخرون ـ في ظل اضطراب المصطلحات في عصرنا ـ إلى التعبير عن ذلك بالأصالة والمعاصرة، وبالقديم والحديث، وبالمطلق والنسبي وبالتراث والحداثة وكل من هذه المصطلحات الثنائية وضعت بإزاء معان مختلفة، بينهما فوارق شتى إلا أن الأمر أصبح فوضى في استعمال المصطلحات بإزاء المفاهيم.

ثانياً: مستويات تطاول المنافقين على الثوابت:

ثلاثة مستويات:

المستوى الأعلى (المستوى المرجعي).

المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

المستوى الرأسي (المستوى العملي).

ولنعرض لكل واحد من هذه المستويات عرضاً ملخصاً:

١-المستوى الأعلى (المستوى المرجعي):

المراد بالمرجعية هنا:

أ- الوحي والنبوة في ذاتها.

ب-القرآن.

ث-السنة.

ج-الصحابة.

ح-القرون الفاضلة.

خ-اللغة.

د-فهم العلماء المعتبرين.

وسأقصر الشواهد هنا على قضية الوحي والنبوة باعتبار عموم معناهما واندراج قضايا عديدة تحت هذا العموم.

أما كلامهم عن الوحي فمنه قول حسن حنفي في معرض رده على مناقش خشي عليه أن يكون «مؤمناً» فأجابه قائلاً: (... فأنت تعني الإيمان السلفي التاريخي... إلخ والمتوارث عبر التاريخ وهو الشيء الذي تخافه عليّ ؛ لذلك فإن إيماني يكفرني، كما أنه يكفرك أيضاً، وبالتالي

فإن القضية بالنسبة لنا هي التحدي ... وأعتقد أن الإخوة العلمانيين يستعجلون التقدم، إنهم يريدونه إيجابياً فقط، وأنا أريد أولاً أن أمنع عوائق التقدم، أي أعمل للتقدم سلباً إذا جاز التعبير، فإذا ما استطعت ذلك عندئذ أسلّم المجتمع العربي إلى الإخوة العلمانيين لكي يبنوه إيجاباً، ومن ثم أنا مقدم لهم، أنا ماركسي شاب وهم ماركسيون شيوخ هذا تقسيم لأدوار العمل ... وفي ما يتعلق بمضمون الوحي وحادث الوحي، فكما بينت لكم، أنا مفكر وضعي، أقصد أنا وضعي منهجي ولست وضعياً مذهبياً، إن كل ما يخرج عن نطاق الحس والمادة والتحليل، أضعه بين قوسين ...) الإسلام والحداثة: ص ٢١٨ - ٢١٩.

ويقول حسن حنفي أيضاً في قوله: (... الحداثة تبدأ بالالتحام المباشر مع الواقع، فالبنسبة لقضية فلسطين، هل إنك تحتاج إلى العودة إلى القرآن والحديث لتنادي بالتحرير؟ وفي قضية الشعر والفن، هل أنت محتاج إلى نص قرآني أو حديث نبوي لكي تعرف أو تجد حلاً لقضايا الشعر والفن وقضايا الوحدة والتجزئة، قضايا الهوية والاختلاف... إلخ، وهذا يعني بأن الالتحام المباشر بالواقع يجبُّ أحياناً كل نص، بل إنك كما قال مالك بن أنس: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» قل أنت: قال الله في كتابه الكريم: يا شباب الحجارة ويا أطفال الحجارة استمروا، ويكون كلامك صحيحاً...، إن المسلم يجوز له أن يضع نصاً

يعبّر به عن مقصدٍ في الواقع ويكون مصدراً للحكم) الإسلام والحداثة: ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

وقرر بأنه (... قد تداخل كلام الله وكلام البشر في أصل الوحي في القرآن ...) المصدر السابق ١٣٨.

ومِن أظهر من تصدى لنصوص الوحي وخاصة القرآن المسمى (نصر أبو زيد وهو نصر حامد أبو زيد، أحد أشد عتاة أعداء الإسلام المعاصرين، يرى أن القرآن العظيم مجرد نص لغوي، وأن الوحي مجرد ظاهرة، وكل ذلك قابل للنقاش والأخذ والرد، يتبنى العلمانية ديناً، ومناقضة الإسلام مبدأ، ومحاربة الشريعة الإسلامية غاية، اهتم بالدراسات اللغوية وعلوم القرآن وقضايا التأويل، محاولاً إيجاد أرضية فكرية لتقويض الإسلام، مجمل كتاباته تدل على أنه يتبنى هدم الإسلام من داخل الإسلام نفسه، حمته السلطة العلمانية، ومنعت من مقاضاته، وسهلت خروجه خارج البلد، حيث تلقفته الجامعات الغربية في أسبانيا وهولندا وأمريكا وفرنسا.

يقول نصر حامد أبو زيد في معرض رده لنصوص الوحي المعصوم المنزل على نبينا محمد ﷺ: (... إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية)، (... إن النصوص الدينية نصوص لغوية

شأنها شأن أي نصوص أخرى في الثقافة) قضايا وشهادات عدد ٢ بعنوان «الحداثة»، صيف ١٩٩٠ م/ ١٤١. هـ: ص ٣٨٩ . و ص ٣٩١، ٣٩٢.

ثم يخلص من هذا الكلام الهزيل ليصل إلى مراده النهائي، والذي سوف يرتب عليه نسف الدين كله فيقول: (وإذا كنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية فإن هذا التبني لا يقوم على أساس نفعي أيديلوجي يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم على أساس موضوعي يستند إلى حقائق التاريخ وحقائق النصوص ذاتها). المصدر السابق ص ٣٩١، ٣٩٢ .

ويستتر هذا البغيض تحت عبارات يخادع بها ويبث بها كفره مثل: الموضوعية وحقائق التاريخ وحقائق النصوص، وهو أبعد مايكون عن كل ذلك وهو من جنس حجج الكافرين السابقين: {وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا} [الفرقان: ٥] {وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآۚ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ } [الأنفال: ٣١].

وها هو محمد أركون يتهكم بالمؤمنين الذين يؤمنون بأن الله خالق العالم ويصفهم بالأصوليين والأرثوذكس فيقول: (...موقف المتكلمين الفقهاء، أي الأصوليين الذين يدافعون عن الموقف الأرثوذكسي كما

حدده القرآن بأن العالم مخلوق من الله، وبين موقف الفلاسفة الذين قالوا بأزلية العالم ...) الإسلام والحداثة: ص ٣٤.

يقول نصر أبو زيد عن القرآن: (تتحدث كثير من آيات القرآن عن الله بوصفه ملكاً (بكسر اللام) له عرش وكرسي وجنود وتتحدث عن القلم واللوح، وفي كثير من المرويات التي تنسب إلى النص الثاني - الحديث النبوي - تفاصيل دقيقة عن القلم واللوح والكرسي والعرش، وكلها تساهم - إذا فهمت فهماً حرفياً - في تشكيل صورة أسطورية عن عالم ما وراء عالمنا المادي المشاهد المحسوس) المصدر السابق: ص ٣٩٢ .

ويقول أبو زيد: (...كان المعنى النقيض الذي ساد بعض الوقت ثم تم تهميشه بعد ذلك هو أن القرآن حادث مخلوق ارتبط إيجاده وإنزاله بحاجة البشر وتحقيقاً لمصلحتهم، ومن السهل أن ندرك أن هذا المعنى النقيض كان جزءاً من بنية فكرية أخرى تطرح رؤية للعالم والطبيعة والإنسان تتسم بالحيوية والديناميكية ... وغني عن القول: إن تلك الرؤية النقيضة هي التي أبدعت وأنجزت في مجال المعرفة العلمية تلك الإنجازات التي أفادت منها أوروبا.

وإذا كان معنى قِدم القرآن وأزلية الوحي يجمد النصوص الدينية ويثبت المعنى الديني، فإن معنى حدوث القرآن وتاريخية الوحي هو الذي يعيد للنصوص حيويتها، ويطلق المعنى الديني - بالفهم والتأويل - من

سجن اللحظة التاريخية إلى آفاق الالتحاق بهموم الجماعة البشرية في حركتها التاريخية... إن القول بحدوث القرآن يظل ذا أهمية تاريخية من حيث المعنى والدلالة... الذي ندعو إليه هو عدم الوقوف عند المعنى في دلالته التاريخية الجزئية، وضرورة اكتشاف المغزى الذي يُمكن لنا أن نؤسس عليه الوعي العلمي التاريخي .

إن النصوص الدينية ليست في التحليل الأخير سوى نصوص لغوية).

قضايا وشهادات ٢ صيف ١٩٩٠ م/ ١٤١. هـ: ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

أما النبوة: فكلامهم في هذا الصدد متنوع ومتعدد، بيد أن من أوائل من فتح لهم هذا الباب هو طه حسين الذي اصطنع الشك بل استنسخ الشك من ديكارت، ليسلطه على الحقائق الدينية والتاريخية، بل حتى على بعض المسائل الاعتقادية كما هو الشأن في هذه القضية التي نحن بصددها، وذلك حين ادعى أن القرآن والتوراة لا يكفيان حين يتحدثان عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تتحدث عن هجرة إسماعيل إلى مكة، والنتيجة المترتبة على ذلك من انتساب العرب المستعربة إلى إسماعيل، وادعى أن هذه القصص منتحلة وضعها اليهود الذين يستوطنون شمالي البلاد العربية، وأن القرآن إنّما اصطنع هذه القصص احتيالاً لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية أو بين القرآن والتوراة

والعرب واليهود. انظر: الصراع بين القديم والجديد ٢/ ١٩٥، ونقد كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدي: ص ٧٦ .

وقد كتبت لجنة العلماء في مصر تقريراً مفصلاً عن كتاب «في الشعر الجاهلي» الذي ذكر فيه القول الشنيع عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقد قررت اللجنة أن الكتاب (كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة، وفيه مغامز عديدة ضد الدين مبثوثة فيه، لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لعقائدهم).

وبينوا (أنه إذا لم تكافح هذه الروح الإلحادية في التعليم ويقتلع هذا الشر من أصله وتطهر دور التعليم من اللادينية التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير وإحكام تحت شعار حرية الرأي، اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن ؛ لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

والكتاب وضع في ظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلاً يجده دعامة من دعائم الكفر ومعولاً لهدم الأديان، وكأنه ما وضع إلاّ ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الإسلامي) انظر نص التقرير في: كتاب تحت راية القرآن: ص ١٦٧ - ١٧٢.

وحتى لا يكون الكلام مجرد نقل عن الناقدين لطه حسين فإنه لا بد أن نذكر قوله بنصه لتبيان حقيقة قوله الذي أصبح فاتحة شرّ لما هو أعظم من ذلك فيما بعد.

يقول طه حسين: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة). في الشعر الجاهلي: ص ٢٦.

ثم يقول طه حسين: (نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى) . في الشعر الجاهلي: ص ٢٦ .

ثم يضيف: (وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح) في الشعر الجاهلي: ص ٢٧.

إلى أن قال: (إذاً فليس [هناك] ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما أنها متصلة بإينياس بن بريام صاحب طراودة، أمر هذه القصة إذاً واضح، فهي حديثة العهد قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً، وإذاً فيستطيع التاريخي والأدبي

واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى) في الشعر الجاهلي: ص ٢٩.

ولا شك أن هذه الأقوال تتضمن معارضة صريحة للقرآن العظيم وتكذيباً للنصوص القاطعة وللرسول ﷺ الذي أوحي إليه من ربه: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}. [الحج: ٢٦- ٢٧].

وهذا الذي قاله طه حسين عن القرآن هو عين الذي قاله المشركون في القرآن من قبل: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}. [الفرقان: ٤ - ٥].

لقد كان طه حسين طليعة المجترئين على حرب الوحي والرسل والرسالات، وما زال يعد عند الحداثيين والعلمانيين صاحب طريقة يجب أن تطاع وأن تسلك، فها هو الحداثي عزيز العظمة يستشهد بكلام طه حسين، ويجعله منطلقاً لرفض وصاية أهواء الماضي، واعتبره برنامج

عمل للفاعلية العقلانية التاريخية (الإسلام والحداثة: ص ٢٦٩)، وقائد الريادة للممارسة الفكرية المستقلة عن الماضي، واعتبر أن الذين ردوا على طه حسين في تلك النصوص الخطيرة يمارسون الردة ويعملون إلى إرجاع الأسطورة وإرجاع النص إلى مكانته المتعالية ورفض المساءلة، ثم ينتقد العظمة الذين أحجموا عن القيام بمثل ما قام به طه حسين (الإسلام والحداثة: ص ٢٧٠ - ٢٧١) .

ثم ختم مقاله بقوله: (إن عنوان الحداثة العلمانية في يومنا هذا هتك أساطير البداية، ووعي التاريخ والتأسيس فيه ومن سياقه العالمي، وإعادة الوصل مع كونية طه حسين مع مواضع أخرى حيث تعطل الوصل بيننا وبين الترقي الثقافي والعقلي الكفيل بإعادة الاعتبار للشرط اللازم للرقي في معانيه الأعم) (الإسلام والحداثة: ص ٢٧١).

وهذا ما ترسخ فعلاً في مشروعات أهل الحداثة والعلمانية فقد وجدوا أن الالتحاق بهذه المفاهيم هو أقرب الطرق لهدم الإسلام من خلال هدم أصوله ومصادره.

وهاهو شوقي عبد الحكيم في كتابه «موسوعة الفلكلور والأساطير العربية» يسرد أمورا هائلة من التطاول على ثوابت ومحكمات الدين الإسلامي، حيث أدخل في الأساطير أموراً ثابتة في القرآن والسنة، ومن ذلك أنه خصص مبحثاً عن جبريل - عليه الصلاة والسلام - باعتباره

أسطورة من الأساطير العربية، فقال: (جبريل في المثيولوجيا العربية هو رئيس ملائكة الرحمة، وأحد الملائكة الثلاثة المصرح بذكرهم في القرآن، اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل «والأخير هو إسرافيل، أحد حملة العرش»، يصف جبرائيل بقوله: «وهو الذي ينفخ في الصور نفخات ثلاث، أولاهن نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالث نفخة البعث» كما صوره النبي محمد بقوله: «جبريل في صورته وله ستمائة جناح، وكل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه التهاويل» وهو الذي أسرى بالنبي محمد إلى السماء السابعة، وقالوا: «إنه من شدة قوته رفع مدائن قوم لوط وكن سبعاً بمن فيهن من الأمم ... ويظهر جبريل في أساطير الخلق الثلاثة العبرية والعربية وعند الفلاشا، كأحد رسل الله الثلاثة لإحضار الطين المقدس من المياه الفطرية حين أراد الله تشكيل العالم والإنسان) إلى آخر ما جاء في كلامه وهو طويل.

موسوعة الفلكلور والأساطير العربية لشوقي عبد الحكيم: ص ١٩٨.

وقد ساق (أدونيس) كلام صِنوه ابن الراوندي في جحد النبوة وامتدحه، وشرح كلامه في ذلك وفي تهكمه بشرع الله ورسوله وبالعبادات والأحكام، ثم يتعرض للمعجزات جاحداً ساخراً متهكماً قال أدونيس: (ثم يرد المعجزات المنسوبة إلى النبي كحديث الميضأة، وشاة أم معبد، وحديث سراقة وكلام الذئب، وكلام الشاة المسمومة،

ويسخر من معجزة الملائكة الذين أنزلهم الله يوم وقعة بدر لنصرة النبي، قائلاً: «إنهم كانوا مغلولي الشوكة، قليلي البطشة على كثرة عددهم، واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلاً» ثم يتساءل: «أين كانت الملائكة في يوم أحد لما توارى النبي ما بين القتلى فزعاً، وما بالهم لم ينصروه في ذلك المقام ؟» وابن الراوندي هنا لا ينتقد المعجزة بذاتها وحسب، وإنّما ينتقد كذلك المنطق الداخلي المتهافت، الكيفي، لدى القائلين بها، فإذا كانت المعجزة هنا نصراً من الله يجيء في وقت الحاجة إليه، فإن حدوثها في الحالات الأكثر حرجاً وضيقاً أولى من حدوثها في الحالات الأقل حرجاً وضيقاً، ثم يحاول ابن الراوندي أن ينتقد النبي في الفكر والعمل قاصداً من وراء ذلك إبطال دعواه النبوة) . الثابت والمتحول ٢ - تأصيل الأصول ٧٥.

يقول أدونيس: (في الشرق حروب مسعرة تحت راية نص ديني أصيل، والإنسان العربي يقاتل دفاعاً عن مبادئ لايؤمن بها، فهو جندي في خدمة الأوهام، يستميت لتوطيد قيوده .

وهذه الدعوات للتقيد بحرفية النصوص قد تعنف وتتعاظم، خاصة أن الشعوب عامة تزداد تقبلاً للطروحات العقائدية والتصورات الخرافية أو ما شابه.

أوليست هذه النصوص أسساً ودعائماً لدولة إسرائيل ؟

وللنصوص العربية دور مماثل.

ما النصل الأصيل؟

حسب التفسير الشائع - في الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي - النص عالم تزول معه الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله، فأي معنى يبقى لعالم فقد إنسانه واحتفظ بالله والنص؟ إذ إن جوهر الإنسان في غده وليس في ماضيه .

فجذوره مهيار في خطواته، والإنسان لم يجد هويته يوم صاغ لغته فحسب، وإنّما وجد أصله، فمهيار نقيض كل نظام قائم على نصوص أصيلة، اتخذ الحرية مقراً، والديمقراطية الاشتراكية عقيدة لا يقبل بأصل غير الإنسان)(رأيهم في الإسلام : ص ٣٤ - ٣٥ .)

وكلامه في النبوة كثير مضمونه إن:

إن النبي ابن المجتمع ونتاجه، والوحي له أسبقية عند العرب تتمثل في الكهانة والشعر من حيث أن هذه جميعاً فيها اتصال الإنسان بغير الإنسان، وإلغاء الكهانة يؤدي إلى إلغاء الأساس الوجودي والمعرفي لظاهرة النبوة، وظاهرة الوحي استندت إلى مفهوم عميق في الثقافة وهو إمكانية اتصال بين البشر وبين العوالم الأخرى من الملائكة والشياطينَ. انظر مفهوم النص: ص ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٥٩، ١٤٤ .

التشكيك في أمية النبي ﷺ، والقول بأنه كان حائراً بعد مجيء الوحي أول مرة إليه، وأنه كان يتشوف إلى ما يطمئنه على صحة قواه العقلية. مفهوم النص: ص ٧.، ٧١ .

يقول أدونيس: (في الشرق حروب مسعرة تحت راية نص ديني أصيل، والإنسان العربي يقاتل دفاعاً عن مبادئ لا يؤمن بها، فهو جندي في خدمة الأوهام، يستميت لتوطيد قيوده .

وهذه الدعوات للتقيد بحرفية النصوص قد تعنف، وتتعاظم خاصة أن الشعوب عامة تزداد تقبلاً للطروحات العقائدية والتصورات الخرافية أو ما شابه .

أوليست هذه النصوص أسساً ودعائماً لدولة إسرائيل؟

وللنصوص العربية دور مماثل.

ما النصل الأصيل؟

حسب التفسير الشائع - في الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي - النص عالم تزول من الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله، فأي معنى يبقى لعالم فقد إنسانه واحتفظ بالله والنص؟ إذ أن جوهر الإنسان في غده وليس في ماضيه.

فجذوره مهيار في خطواته، والإنسان لم يجد هويته يوم صاغ لغته فحسب، وإنّما وجد أصله، فمهيار نقيض كل نظام قائم على نصوص أصيلة، اتخذ الحرية مقراً، والديمقراطية الاشتراكية عقيدة لايقبل بأصل غير الإنسان) رأيهم في الإسلام : ص ٣٤ - ٣٥ .

وممن يعتبر عند بعض الدراسين من المعتدلين في الحداثة، إحسان عباس!! الذي تحدث في كتابه «اتجاهات الشعر العربي» عن الأسطورة في الشعر المعاصر وكيف استخدمها الشعراء، وضرب لذلك أمثلة عديدة، وجعل منها المسيح ويحيى - عليهم الصلاة والسلام - والخضر وأخبار الإسراء والمهدي المنتظر، كلها عدها من الأساطير. انظر اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٨ – ١٢٩.

ويقول عبد الوهاب المؤدب: (وكان التوحيد قد اخترق الجزيرة العربية في صيغته اليهودية والمسيحية، فكان بعض اليهود والمسيحيين ينتظرون موسى آخر وربما وجدوه بشخص محمد، إذ كان رجل ثقافة واسعة وتفهّم كبير فشعر أن شعبه جاهز للانصاط (هكذا) على أهبة الاستعداد للفتح، فخط التوحيد بلغة الضاد، وأقام وحدوية رمزية تتسم بطابع الآنية كحافز لانطلاقة العرب، وأن تتخذ تلك الوقائع، الأسطورة هالة لها، فالأمر طبيعي .

قلت: إن محمداً كان رجل ثقافة، فلماذا ادّعوا أنه أمي، لا يقرأ ولا يكتب؟ أمِن أجل إضفاء مصداقية أكبر وشرعية أعظم تزيد الرسالة نفاذاً في النفوس؟ فكل كلام علمي يتلفظ به أَمي، لا بد من أن يتجاوز قائله ليصبح مصدره إلهياً) رأيهم في الإسلام : ص ٢٢٥ . والقول لعبد الوهاب المؤدب .

ومن أمثلة ذلك أن السياب عد وحي السماء أساطير بالية تجر القرون بمركبة من جنون ولظى وغبار السنين، يقول:

(أساطير، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين
فكم أومضت في عيون الطغاة
بما حملت من غبار السنين!
يقولون: وحي السماء
فلو يسمع الأنبياء
لما قهقهت ظلمة الهاوية
بأسطورة بالية
تجر القرون

بمركبة من لظى، في جنون
لظى كالجنون!). ديوان السياب: ص ٣٤ .

وفي قصيدة «المومس العمياء» التي يقولون فيها بأنها إعلان انفصاله عن الشيوعيين، يتحدث عن مجموعة من البغايا يبحثن عن رجال، ثم يقول في استخفاف بالأنبياء وجحد لهم يعبر عنه بلفظ الاندحار:

(والسور. بمضغهن ثم يقيئهن ركام طين
نصباً يخلد عار آدم واندحار الأنبياء). ديوان السياب: ص ٥٢٩.

وفي مقطع آخر يعلن عقيدته في الأنبياء وفي نبوة محمد ﷺ فيقول:

(كفرت بأمة الصحراء
ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكةٍ أو عند واديها). ديوان السياب: ص ٦٤٢.

٢-المستوى الأفقي (المستوى التطبيقي).

أ- الاعتقادي (أركان الإيمان الستة).

ب- التشريعي.

ج- العبادي.

أ- الاعتقادي (أركان الإيمان الستة):

وعليها سأقتصر في هذا المدرك:

١- الإيمان بالله:

في هذا الصدد يقول حسن حنفي الذي يعد عند بعض العلمانيين والحداثيين من أصحاب التوجه الإسلامي المستنير!! يقول في ندوة عقدت في لندن بعنوان «الإسلام والحداثة» عام ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م: (إن العالم مقسوم إلى قسمين: الله والعالم فينعكس ذلك حتماً في المجتمع، على السلطان على الحاكم والمحكوم، وسينعكس في الأسرة على الرجل والمرأة، والسؤال الموجه لك هو: أن هناك ثلاثة اختيارات، اختيار حركة تحرر المرأة... في البداية لتحرير المرأة من الرجل، وهناك المثقف العلماني الذي يبدأ بتغيير النظام السياسي، وهناك الذي يحاول تثوير الدين، ما لم نقضِ على هذا التصور الثنائي للعالم ورؤية العالم بين الحاكم ومحكوم، وعلى المستوى الديني بين خالق ومخلوق، فلن تستطيع حركات تحرر المرأة أن تفعل شيئاً، ولن يستطيع المثقف العلماني أن يؤدي دوره ما لم نقضِ على هذا التصور، هذا السؤال الأول في آليات التغيير). الإسلام والحداثة: ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

ويعد علماني آخر -وهو اللبناني عادل ظاهر- أن قضية لزوم تطبيق حكم الله في الأرض مرتبط في عقيدة المسلم بإيمانه بوجود الله الخالق، وأن هذا الاعتقاد هو الذي يشكل الرباط المعرفي والأسبقية الاعتقادية

التي ينبني عليها القول بلزوم انضواء السياسة تحت الإسلام، كما يقول بذلك علماء ودعاة الإسلام اليوم، ومن ثم يشير هذا الكاتب إلى مايجب استبعاده من منظومات عقائد المسلم، باعتبارها الأساس للقول بوجوب الحكم بشرع الله في سائر نواحي الحياة وهي القضية التي يسعى لمحاربتها، ويرى أنه لا يُمكن استبعادها إلاّ باستبعاد أساسها الاعتقادي، فيقول: (...إن الكلام على الماهية العقدية للإسلام هو كلام على ذلك الاعتقاد الذي له أسبقيته ومنطقية على الاعتقادات الدينية الأخرى للمسلم، إن أسبقيته المنطقية يحتّمها كونه الأساس الأخير لكل اعتقاد آخر للمسلم. إنه ما ينبغي أن نلجأ إليه في نهاية التحليل، لنقرر ما الذي يتحتم استبعاده أو عدم استبعاده أو لا يتحتم استبعاده من منظومة اعتقادات المسلم الدينية، ومعيار الاستبعاد أو عدم الاستبعاد، هو معيار منطقي في المقام الأول)(كتاب الحداثة والإسلام، من مقال للبناني عادل ظاهر بعنوان (الإسلام والعلمانية): ص ٧٤ - ٧٥) .

إلى أن يقول: (ولكن أي اعتقادات المسلم هو الاعتقاد المؤهل لاحتلال هذا الوضع الإبستمولوجي الفريد في المنظومة الاعتقادية للمسلم؟ إنه لا شك الاعتقاد بوجود خالق أزلي كلّي الحضور، واحد أحد لكل شيء، خالق واجب الوجود وكلّي العلم وكلي الخير وذي حرية تامة

ومصدر للإلزام الأخلاقي، إن أي اعتقاد آخر يتعارض معه مستبعد بالضرورة من المنظومة الاعتقادية للمسلم...) (المصدر نفسه ص ٧٥) .

وبعد سفسطات سخيفة يقول: (هل يُمكن أن يكون الله ذو الطبيعة المسندة إليه من قبل الإسلام كائناً يُمكن أن يأمر البشر بأن يقيموا دولتهم على أسس معينة لا سواها بغض النظر عن ظروفهم الزمانية والمكانية؟ هل يُمكن لكائن له طبيعة الله أن يفرض على المؤمنين في كل عصورهم وأممهم ألا يفصلوا بين دينهم والسياسة ؟ ...) (المصدر نفسه ص ٧٥) .

كما يحلو لمحمد أركون أن يعبر بلغة جارفة ساخرة تبعاً لتعبيرات معلميه في فرنسا وغيرها. ففي سياق انتقاده للغة العربية ووصفه لها بأنها منغلقة ونائمة ومتخشبة، وامتداحه للغة وفكر الغرب يتساءل بعد إيراده للفظ فرنسي إلحادي يقول: (... فكيف نعبر عنه باللغة العربية؟ هل نقول مشكل الله أو مشكلة الله؟).

ثم يعقب بأن هذا التعبير يقابل بالاندهاش والاستنكار عند العرب في حين أنه تعبير عادي في اللغة الأوربية الحديثة. (الإسلام والحداثة: ص ٣٤٣).

ثم ينسلّ إلى مقصده الرئيسي الذي ذكره سابقاً فيما يتعلق بالله تعالى، فيقول عن العربي: (... لا يُمكن أن يتصور إمكانية طرح مشكلة فكرية حول الله أو مناقشة فكرية حول وجود الله، والسبب هو

أن الخطاب القرآني يملأ مشاعره كمسلم أو كعربي بوجود الله، إنه يملأ أقطار وعيه ومشاعره إلى درجة أنه لا يبقى في وعيه أية مساحة لإثارة مناقشة فكرية حول وجود الله). الإسلام والحداثة: ص ٣٤٤ .

أمّا لماذا كل هذا التبجح بالإلحاد ؟ فأمر يجيب عليه أحد نقاد الحداثة قائلاً: (لعل إشكالية الحداثة هي الأكثر لبساً بين الإشكالات الفكرية والثقافية والفنية التي شهدتها لوحة الثقافة العربية الراهنة .

ويبدو أن هذا اللبس والغموض المحيط بها ليس سمة الحداثة في حقل تداولها الاصطلاحي والدلالي العربي فحسب، بل هي ولدت في سياقها الغربي متلبسة باللبس والشك والقلق، والعقل المزدحم بتمزقاته وانشراخه... حيث لا أفق سوى العدمية والاستلاب بعد إعلان نيتشه موت الله وموت الجمال معه، والفن لم يعد يعوض عن الحياة بل يساهم في تعميق الاستلاب نحوها، فسيموت الفن تاركاً إيّانا في العراء ...

إن الباحث وهو يجهد لاكتشاف خصائص ومميزات الحداثة وسط العوالم القاحلة والعراء الروحي إلاّ من الشمس السوداء، وقمر الكارثة الشاحب، لابد أن يقر بصعوبة الإحاطة بكليتها عبر تناقضاتها وتفتت رؤيتها لذاتها وللعالم ... وهي إذ تطمح لإلغاء الطبيعة عبر تشييئها التقني لا تلبث أن تنتحب حنيناً إلى فردوس الطبيعة المفقود، فقد اغتالت الله والجمال والأخلاق والفن وراحت تندب وترثي ما اجترحته يداها .

إنها وعي المتاهة إذ تغدو المتاهة هي الحقيقة الواقعية الوحيدة بعد أن مات الإنسان بموت الله عبر قرون من تلاشيه التدريجي ...) .

قضايا وشهادات ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦ من مقال لعبد الرزاق عيد بعنوان (الحداثة: عقيدة الأفاعي)، وفيه ثناء وإطراء للماركسية والزعم أنها أبدية وأنها العقلانية الوحيدة، ويتوقع مستقبلاً زاهراً لها ويثني على الحداثة ورموزها وطموحاتها .

واقتصر هنا على جزء من توحيد الربوبية وهو وجود الله -تعالى- أما باقي قضايا الربوبية وتوحيد الألوهية والأسماء والصفات فلهم فيه كلام أبشع وأشنع.

٢- الإيمان بالملائكة:

مِن أظهر الذين جحدوا وجود الملائكة علاء حامد في روايته (مسافة في عقل رجل)، حيث يجعل الإيمان بالملائكة ثمرة للإيمان بالله الذي يرى أن نفيه هو الذي سيؤدي إلى نفي كل ما يترتب عليه من غيبيات، فيقول: (... من الأهمية بمكان أن نشذب فكرة وجود الله من أغصانها السرطانية بالالتجاء لقفص العقل، ورفض توارث فكرة وجود الله ... إن الإيمان بوجود الله من خلال الأديان والتي تطالب الإنسان أيضاً بالإيمان بأمور تتخطى نطاق التفكير وتربط قضية وجود الله بهذه الأمور ارتباط الجنين بالمشيمة والجذر بالتربة، فطالما آمن الإنسان بوجود

الله عن طريق الأديان فعليه تقبل كل ما يتصل بوجود هذا الإله من جنة ونار وشياطين وملائكة وجن صالح وجن طالح وإبليس ومعاونيه؛ حتى لا يجرفه الإنكار إلى النار المحرقة). مسافة في عقل رجل: ص ١٩١.

أمّا صلاح عبد الصبور فإنه يذكر ملك الموت في صورة أخرى من التهكم والاستخفاف قائلاً:

(وفي مساء واهن الأصداء جاءه عزريل

يحمل بين أصبعين دفتراً صغيراً

ومد عزريل عصاه

بسر حرفي «كن» بسر لفظ «كان»

وفي الجحيم دُحرجت روح فلان

يا أيها الإله!

كم أنت قاسٍ موحش يا أيها الإله!). ديوان صلاح عبد الصبور: ص ٣١.

٢- الإيمان بالكتب:

أثناء قراءة كتب ومقالات أعداء الوحي من المستغربين من أبناء المسلمين يجد الباحث أنهم لم يخرجوا عن المفهوم الغربي في دراستهم لدين الإسلام، ولذلك تجدهم يرددون بإمعيّة كاملة ألفاظ ومصطلحات

أساتذتهم فيطلقون على الوحي مصطلح «ميثولوجيا» أي: مجموعة الأساطير التي تعمل على فك مستغلفات الحياة والموت، ويجعلون المنهج «الميثولوجي» أساس دراستهم، باعتباره علماً يعالج تصنيف المعتقدات ويحللها ويقارنها وفق المفهوم الغربي بطبيعة الحال .

وأحياناً يسمون نصوص الوحي «الميثات» جمع «ميث» وهي الأسطورة والقصة الخرافية التي يسودها الخيال، وإذا تكلموا عن الدين أطلقوا عليه اسم «ثيولوجي» وهو مصطلح يعني اللاهوت بالمفهوم الغربي النصراني واليهودي، ويعرفونه بأنه علم يبحث في وجود الله وذاته وصفاته، ويسمى أيضاً «ثولوجيا» وعلم الربوبية والإلهيات، واللاهوت الطبيعي يعتمد على التجربة والعقل وحدهما دون الرجوع إلى النقل، ويقابله عندهم اللاهوت المنزل ويعتمد على النصوص المقدسة.

وإذا تعرضوا لدراسة الوحي ونصوصه تخاطروا بألفاظ تلقوها عن أساتذتهم، وتنافروا بالمصطلحات الغربية على أساس أنها هي الحق والحقيقة والعلم، من أمثال «الفيلولوجيا» وهي الطرق التي تستهدف إنجاز نص، وتسهيل قراءته ونقده، ودراستها النقدية من خلال الوجهتين التاريخية والمقارنة. (انظر: الفيلولوجيا في: معجم المصطلحات المعاصرة لعلوش: ص ١٧١).

وقد استخدموا هذا المنهج النقدي تبعاً لسينوزا وغيره، وحاولوا من خلال هذا النقد هدم نصوص الكتاب والسنة كما فعل الغربيون في الكتب المحرفة، أو التشكيك في ثبوتها وصحتها أو في مدلولاتها القطعية، كما أنهم استعملوا لهذا الغرض الأخير منهج التأويل المعاصر الذي يطلقون عليه مصطلح «هرمنيوطيقيا» وهي طريقة تأويل، تدرس المبادئ المنهجية في التعامل مع النصوص وتفكيك رموزها وكشف أغوارها، وتستهدف في ميدان الوحي - الذي هو أهم ميدان للهرمنيوطيقيا - الدراسة التأويلية للرموز والاستعارات، وتعني استخلاص المعنى الكامن انطلاقاً من المعنى الظاهر، أو الانطلاق من المعاني المجازية بحثاً عن المعاني الحقيقية .

وقد استخدم هذا المصطلح في أول الأمر في دوائر الدراسات اللاهوتية ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني «الكتاب المقدس» عند الأوروبيين من يهود ونصارى، ثم اتسع مفهوم هذا المصطلح ليشمل كل العلوم الإنسانية، غير أن الحداثيين والعلمانيين في سياق تبنّيهم لسبينوزا ومناهجه، توجهوا إلى الوحي من كتاب وسنة لدراسته على أساس المنهج التأويلي «الهرمنيوطيقي» حسب مفهوم تعبير الغربيين، وتعريب المستغربين (انظر عن «الهرمنيوطيقيا»: معجم المصطلحات الأدبية لسعيد علوش: ص

٢٢٤ - ٢٢٥، ومعجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: ص ٩٠ - ٩١، وإشكاليات القراءة وآليات التأويل لنصر أبو زيد: ص ١٣، ٢٠، ٢٧، ٣٠، ٤٤).

ومن المصطلحات التي تقمصها المنهزمون من أبناء المسلمين في دراستهم للوحي مصطلح «التاريخية» أو «التاريخانية»، وقد أغرم بهذا المصطلح إلى حد التقديس محمد أركون ونصر أبو زيد، ويفضل أركون استخدام التاريخية ويفصل بينها وبين التاريخانية، على اعتبار أن التاريخانية هي التي تقول بأن كل شيء أو كل حقيقة تتطور مع التاريخ وتهتم بدراسة الأشياء والأحداث من خلال ارتباطها بالظروف التاريخية، ويرى أركون بأنه يجب تجاوز هذا المعنى إلى «التاريخية» التي تسمح وحدها بتجاوز الاستخدام اللاهوتي أو القومي، وبشكل عام الإيديولوجي للتاريخ. (انظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية لأركون: ص ١٣٩).

ويتعامل المستغربون مع الوحي على الطريقة الغربية، باعتباره فكرة من الأفكار، ويدرسون كيفية انتشاره، والنزعات التي أثرت في وجوده وتطوره، مستبعدين قضية عصمة الوحي وعصمة المبلغ ووحدانية الموحي والآمر به، ثم يصدرون بناء على دراسة الظروف والملابسات والأوضاع التي مرت بها نصوص الوحي - وفق معلوماتهم، وحسب أغراضهم ومقاصدهم - الأحكام على النصوص وخاصة القرآن عند المستغربين من أبناء الشرق، ويطبقون سائر مقتضيات هذا المنهج

«التاريخي» على نصوص الوحي بصورة تدل على اعتقادهم العميق بعصمة وصحة هذا المنهج، وهم في «التاريخية» و «الهرمنيوطقيا» أتباع مخلصون لفلسفة مارتن هايدغر، ومتعصبون للمنهج التاريخي، ويعتبرون أن المعرفة التاريخية هي الأداة الأساسية لدراسة النصوص والمصير الإنساني، ويرون أن المنهج التاريخي قادر على الكشف .

من الأمور التي تعرّض لها أركون في دراساته «السوربونية» دراسة الوحي ونصوصه على ضوء عقيدة خاصة، ليست عقيدة، الإسلام، قال عنه مؤلفا كتاب «رأيهم في الإسلام»: (صاحب عقيدة واثق من صلابة تفكيره وصواب رأيه، ووضوح مواقفه...، يحافظ على اتصال دائم مع التطور الغربي، مخاصماً مسلمين كثر، فوجئوا وصدموا باستعماله، في خواطره وأبحاثه التاريخية نظريات استوحاها من حياة القرن العشرين وأوروبا، وعلم اللغات وتحاليل اجتماعية وأصول تنظيمية، همه الأوحد تطهير رؤى هؤلاء لإسلامهم من الخرافات والأوهام والشوائب التي تشوبها...، فإعادة النظر بمجموع التقاليد الإسلامية لتوحيدها وكشف الرواسب المتراكمة التي عثَّرتها منذ الدعوة القرآنية، هي موضع اهتمام محمد أركون كما المصلحين المحدثين، مصدرها سلطان النص المطلق، وشرعية هذا السلطان الذي لا يخلو من تعصب نظري، فينبغي أن تؤدي الثقة العارمة بالنص إلى التقليل من أهمية

التجدد في النظرة - أكانت شرقية أم غربية -إلى الإسلام، التي تواكب عمل أبرز أخصائي مسلم بالدين، ولا ريب، لغته فرنسية) رأيهم في الإسلام : ص ١٤٥ - ١٤٦ .

يتحدث أركون عن التاريخية والهرمنيوطيقيا التي يدرس على ضوئها ثبوت القرآن وسيادته، ويتحدث أن سلطته جاءت من الدولة الأموية التي جعلته مصدر السلطة العليا فيقول: (... إنه عائد إلى الدولة الرسمية التي وضعت منذ الأمويين بمنأى عن كل دراسة نقدية، لأنها أرادت أن تجعل منه مصدراً للسيادة العليا والمشروعية المثلى التي لا تناقش ولا تمس، لقد فرضت هذه الوظيفة السياسية للقرآن نفسها منذ أن تم تشكيل المصحف) (الفكر الإسلام ي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥١).

وواضح أنه لا يرى للقرآن قداسة ولا أحقية في السيادة، وأنه لم يمتلك هذه الأحقية لكونه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما يعتقد كل مؤمن، بل يرى أن هذه السيادة والأحقية نالها القرآن بالفرض السياسي منذ أن تم جمع المصحف .

ويتحدث أركون في موضع آخر من كتابه عن ما يسميه «ظاهرة التقديس» للقرآن العظيم، فيرى أنها من ممارسة (الذين يستمتعون في اجترار نفس الكلام بسبب الكسل أو الجهل) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥٨ .)، ويرى أن المشروع الأسمى هو أن

(نجمد كالأقنوم عامل التقديس الموجود في القرآن والأناجيل والتوراة) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٦٦) وإنه لا بد من (بلورة نظرية مُرضية لظاهرة التقديس، أو لانبثاق ظاهرة التقديس ومنشئها ومسارها داخل الوعي، ودعاماتها المتغيرة في الوجود البشري، فإننا عندئذٍ نكتشف أن مشاكل الصحة والموثوقية أو الاختراع والتحريف الذي لحق بالنصوص المتلقاة على أنها مقدسة، أقول: نكتشف بأن هذه المشاكل ثانوية في الحقيقة. إن منطق الثالث المرفوع «منطق الصحة أو اللاصحة» يبدو عندئذٍ تافهاً لا أهمية له؛ لأننا نكتشف قارات أخرى من الحقيقة النفسية واللغوية والتاريخية للإنسان، كانت هذه القارات قد طمرت أو طمست وأزيحت من ساحة البحث والتفكير عن طريق ثيولوجيا من نوع منطقي - مركزي ...) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٥١) .

إن اطّراح أركون لقضية الصحة والموثوقية لنصوص الوحي واعتبارها قضية تافهة لا أهمية لها، مجرد دعوى يغطي بها مقصده من منهجيته القائمة على دراسة «التقديس» أو تجميد التقديس من خلال ما يسميه الحقيقة النفسية واللغوية والتاريخية بعيداً عن أي نظرة دينية أو حسب تعبيره: (ثيولوجية)، إن هذه الالتفافة البعيدة سوف يصل من خلالها إلى إسقاط صحة وموثوقية النص القرآني المقصود بدراسته، وهذا ما يحاول

فعله حقيقة تحت أردية الألسنة والتاريخية ؛ لأن إسقاط القداسة أو تجميد القداسة سوف يؤدي إلى جعل القرآن مثل أي كلام بشري، فلا حرمة له ولا مكانة، ويُمكن مناقشته بنيوبياً كما يدعو نصر أبو زيد، أو ألسنياً كما يدعو أركون، وبذلك ينزلونه في سوق تلاعباتهم الفكرية التي لا تصلح لدراسة كلام شاعر أو أديب لما فيها من التناقض والفوضوية، فضلاً عن دراسة كلام الله العزيز الحميد .

وفي موضع آخر يتكلم عن صحة القرآن وثبوته باعتباره مجرد فرضية (انظر الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٦٦) .

ثم يتكلم أركون عن أن الخطاب الإسلامي لم يستطع التوصل إلى التمييز في القرآن ونصوص الوحي بين الأسطورة والتاريخ، وإنه (أي: الخطاب الإسلامي المعاصر): «لا يزال بعيداً جداً عن تاريخانية القرن التاسع عشر الأوروبية التي توصلت إلى تهميش العامل الديني والروحي المتعالي وحتى طرده نهائياً من ساحة المجتمع، واعتباره يمثل إحدى سمات المجتمعات البدائية». المصدر السابق: ص ٦٨ .

ويصف أركون قصة أصحاب الكهف بأنها أساطير (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ٨٤) .

ويعيد الكلام عن الخطاب الإسلامي المعاصر فيصفه بأنه (الذي يزعم أنه يحرك التاريخ المعاصر، ويجد له من جديد ديكتاتورية الغاية المثلى

على طريقة الإسلام البدائي، هذا الخطاب هو خطاب أيديولوجي، مغلق على البعد الأسطوري والرمزي ذي الأهمية الحاسمة جداً في القرآن) (الفكر الإسلامي: قراءة علمية لمحمد أركون: ص ١٠٩.) .

يقول أركون: «العقل الدين ... يشتغل داخل إطار المعرفة الجاهزة، ويستخرج كل المعرفة الضخمة استناداً إلى العبارات النصية للكتابات المقدسة من قرآن وأناجيل «توراة»، وإذن فالعقل الديني بطبيعته عقل تابع لا مستقل، وبالتالي فهو لا يطرح مشكلة أصل الوحي المعطى، أو معطي الوحي: أي الوحي كظاهرة موضوعية موجودة بغض النظر عن مشاعرنا الذاتية، تماماً كوجود الظواهر الفيزيائية أو البيولوجية ...، ومن هنا جاء تقديس الشريعة والقانون الإسلامي واعتباره فوق البشر والتاريخ» . الإسلام والحداثة ص ٣٣٨ .

ويتصدى الصادق النيهوم - كعادته - للإسلام ومصدره الأول القرآن العظيم، ثم للمصدر الثاني السنة المطهرة، فيقول: (ميزة كل كتاب مقدس، أن معلوماته تصبح تلقائية غير قابلة للجدل، وهي ميزة مفيدة - فقط - إذا كانت المعلومات نفسها حقائق نهائية...، أسطورة تعلن أن المرأة نفسها مجرد مخلوق جانبي صنعه الرب من ضلع آدم، وهي ترجمة سحرية لحكمة تريد أن تقول: مكان المرأة إلى جانب الرجل.

وإذا كان الحجاب قد أصبح الآن فريضة إسلامية، يدعو إليها الوعاظ علناً باسم الإسلام، فإن هذه الدعوة ليس مصدرها النص القرآني بل مصدرها أن الواعظ المسلم يتكلم لغة عبرانية من دون أن يدري، فمن مطلع القرن الهجري الأول كان الفقه الإسلامي يتلقى علومه بحماسة كبيرة في مدرسة التوراة، وكان موضوع الطمث قد أعيد إلى خانه «النجاسة» من جديد، فتحولت المرأة المسلمة خلال فترة الطمث إلى امرأة «غير طاهرة» مرة أخرى، وعمد الفقهاء إلى إبطال صلاتها وصيامها طوال أيام المحيض، في فتوى لا تستند إلى نص القرآن بل تستند إلى قول التوراة «كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجيء»... فحجاب المرأة ليس شريعة من أي نوع بل منهجاً تربوياً مكتوباً بلغة السحرة، قاعدته النظرية أن «المرأة مخلوق نجس» وقاعدته العملية أن تقنع المرأة نفسها بقبول هذه الشخصية، وهي كارثة تحققها فكرة الحجاب ...، فالمرأة المحجبة لا تخفي نفسها كالطفل داخل عباءة ؛ لأنها امرأة ورعة بل لأنها امرأة مسحورة، تعرضت لحرب نفسية رهيبة، شنها السحرة ضدها طوال ثلاثة آلاف سنة، ضمن خطة تربوية مكتوبة بلسان أكبر ساحر في العالم، وقد نجم عن هذا الضغط الهائل شل عقل المرأة وتدنيس جسدها، وأتاح إدانتها - شرعياً - بأنها «ناقصة عقل ودين» وأحالها إلى مخلوق مريض في حاجة ماسة إلى

رحمة الله إن الحجاب فكرة فظيعة إلى هذا الحد) مجلة الناقد - العدد ١٣ تموز ١٩٨٩ م/ ١٤٠٩ هـ: ص ٦ – ٧.

٣- الإيمان بالرسل:

مرّ معنا في الكلام السابق شيء من موقفهم من الوحي والكتب المنزلة، من تكذيب وتشكيك وسخرية واستهزاء ومضادة ومعاندة.

وما قالوه هناك في الكتب ينطبق على ما قالوه في الرسل الكرام لتلازم ما بين الأمرين في الأصل؛ ولأن الحداثيين تلقوا الانحراف في الرسل والكتب على السواء، باعتبار التلازم الذي بينهما، ثم إن أساتذتهم الذين أخذوا عنهم هذه الانحرافات تعرضوا للكتب والرسل معاً، وكذلك فعل التلاميذ .

والكلام هنا امتداد تفصيلي - بعض الشيء- لما سبق، وفي كلامهم أوجه عديدة من انحرافهم في الرسل والرسالات، ومنها:

١ - جحد الرسالات والتشكيك في وجود الرسل وفي صدقهم.

٢ - البغض والاستهانة والسخرية بالرسل وأعمالهم وأقوالهم.

٣ - جعل الرسل والرسالات مناقضة للعقل وسبباً للتخلف.

٤ - القول في الرسل بأقوال الديانات المحرفة.

٥ - إطلاق أسماء وأوصاف وخصائص الرسل على غيرهم.

ولضيق المقام سنأتي بشواهد لبعض هذا وسأبدأ بمن يعتبر عند بعض الدارسين من المعتدلين في الحداثة، وهو إحسان عباس! وقد تحدث في كتابه «اتجاهات الشعر العربي» عن الأسطورة في الشعر المعاصر وكيف استخدمها الشعراء، وضرب لذلك أمثلة عديدة، وجعل منها المسيح ويحيى - عليهما الصلاة والسلام - والخضر وأخبار الإسراء والمهدي المنتظر، كلها عدها من الأساطير (اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٨ - ١٢٩).

وسوف أعرض هنا نموذجاً للفكر الملوث القائم على المغالطة والافتراء الجريء على الحقائق الثابتة، وهذا يعطينا تصوراً عن نوعية القوم الذين يريدون أن يهدموا دين الإسلام بسواعدهم الضعيفة وأفكارهم الكليلة، ويعطينا صورة عن الموضوعية المدعاة والعقلانية المزعومة، يقول أحدهم: (إن سمو التوحيد - كل توحيد - يتطلب برهاناً كما الوثنية ؛ لأنها إنشاءات تقام على افتراضات) (رأيهم في الإسلام: ص ٢٢٤، والقول لعبدالوهاب المؤدب من المغرب العربي).

وإذا نظرنا في تقسيم التدين فإنه لابد أن يكون: إمّا توحيداً؛ وهو كَمِلّة أهل الإسلام، وإمّا وثنية؛ كمن عداها، حتى ولو كان صاحبها يدعي الإلحاد وعدم الإيمان بشيء فإن ذلك في حد ذاته وثنية .

وبما أن القائل يعيش الوثنيات المعاصرة ويتلبس بمفهوماتها فهو لا يحتاج إلى برهان في وجودها ووجود أتباعها، إذن هو يتطلب برهاناً للتوحيد الذي يبدو أنه يجحده أو يشك فيه، وحيث إن الرجل فرنسي النزعة فسوف نأتيه بفرنسي يحدثه عن المصدر الذي يتضمن إثبات التوحيد وتأكيده .

ومن أمثلة ذلك قول السياب حيث عد وحي السماء أساطير بالية تجر القرون بمركبة من جنون ولظى وغبار السنين، يقول:

(أساطير، مثل المُدى القاسيات

تلاوينها من دم البائسين

فكم أومضت في عيون الطغاة

بما حملت من غبار السنين

يقولون وحي السماء:

فلو يسمع الأنبياء

لما قهقهت ظلمة الهاوية

بأسطورة بالية

تجر القرون

بمركبة من لظى، في جنون

لظى كالجنون!) (ديوان السياب: ص ٣٤).

وفي مقطع آخر يعلن عقيدته في الأنبياء وفي نبوة محمد ﷺ فيقول:

(كفرت بأمة الصحراء

ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكةٍ أو عند واديها)(ديوان السياب: ص ٦٤٢) .

أما نزار قباني فيقول على سبيل التهكم:

(وأنبياء الله يعرفونني

عليهم الصلاة والسلام

الصلوات الخمس لا أقطعها

يا سادتي الكرام

وخطبة الجمعة لا تفوتني

يا سادتي الكرام

من ربع قرن وأنا

أمارس الركوع والسجود

أمارس القيام والقعود) (الأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ١٣٢).

ثم عقب بعد ذكر هذه الأعمال والعقائد الإسلامية وغيرها:

(وهكذا يا سادتي الكرام

قضيت عشرين سنة

أعيش في حظيرة الأغنام

أعلف كالأغنام

أنام كالأغنام

أبول كالأغنام

أدور كالحبة في مسبحة الإمام

لا عقلي لي لا رأس لا أقدام

استنشق الزكام من لحيته

والسل في العظام

قضيت عشرين سنة

مكوماً كرزمة القش على السجادة الحمراء

أجلد كل جمعة بخطبة غراء) . المصدر السابق ٣/ ١٣٢ - ١٣٣ .

٤- الإيمان باليوم الآخر:

هذه العقيدة القطعية الثابتة الصحيحة التي يعتقدها أهل الإسلام، نجد أن المتطاولين على الثوابت قد كذبوها وخالفوها وأنكروها: إمَّا بالكلية كما هو حال أكثرهم، وإمَّا في بعضها، والتكذيب ببعض كالتكذيب بالكل، وإمَّا بالشك والارتياب في حصولها، والشك تكذيب ومناقضة لليقين الواجب .

ونجد في منثور أقوالهم، وأصول عقائدهم الجحد الصريح ونفي البعث، والسخرية بالنصوص الشرعية والعقائد اليقينية المتضمنة لإثبات اليوم الآخر وما وراءه .

وهم في هذا كله ينطلقون من أصولهم المادية الإلحادية، التي بنوا عليها أسس فكرتهم ومنطلق توجههم، ووجهة إبداعهم، فلم يتجاوزوا حدود أقوال الدهرية القدماء بل قالوا بقولهم في أبدية الدنيا والدهر، وكرروا مضامين عقائدهم، وبعضهم قال بتناسخ الأرواح، فهم – إذن – لم يتجاوزوا الأسس الإبليسية التي أضل بها من قبلهم، وإن توغلوا في ذلك ونوعوا العبارات، واستخدموا أساليب الأدب واللغة، ولغة الفن والصحافة والإعلام، وخادعوا بالادعاءات العلمية والمزاعم العقلية، وغير ذلك من الأساليب الحداثية المشهورة.

وإذا نظرنا إلى أقوال هؤلاء الجاحدين للبعث أو المشككين فيه فإننا نجدهم عدة أضرب:

الأول: الجاحدون الملحدون، فهؤلاء أنكروا وجود الخالق تعالى، وتبعوا أقوال الفلاسفة الدهريين الطبائعيين الماديين، ومن هؤلاء الشيوعيون والوجوديون .

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والمعاد والنشور والآخرة .

وسلفهم في ذلك كفار الجاهلية الأولى الذين كانوا يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ}، وهم مع ذلك يقولون كما حكى الله - تعالى- عنهم: {قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ}، [النمل: ٨١ -٨٢].

والمنطق الجاهلي نفسه يردده المنحرفون المحدَثون، حيث يدّعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يزعمون أن الله – تعالى- عاجز عن إحيائهم بعد إماتتهم وبعثهم بعد فناء أجسادهم .

وهذا القسم هو الذي ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه –سبحانه- لا يعجزه

شيء، وفي مضمون ذلك رد على سائر المكذبين والجاحدين والمنحرفين .

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاء بها الشرائع وتحدث بها الوحي، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون الحق بتأويلات باطلة فاسدة خاطئة، ويزعمون أنهم مهتدون.

وهذا الصنف هو أخبث الأصناف وأشدها ضرراً؛ لأنهم يتلبسون بالدين، ويستخدمون آلته في محاولة هدمه وتخريبه، تحت مسميات التحرر الفكري، والمسايرة للعصر، والنظرة التنويرية للنصوص، والتجديد للفهم وتجاوز العقليات الجامدة والتفسيرات السلفية الثابتة، وتقريب الإسلام من روح العصر، وعقلنة الدين وعلمنة الشريعة، إلى آخر دعاوى الأدعياء الذين يصدق عليهم قول الله – تعالى-: { هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ }[المنافقون:٤].

ومن الأمثلة قول الحداثي المحترق جابر عصفور في سياق حديثه عن الموقف المضاد للحداثة في كتاب الأخ الشيخ عوض القرني، ومقدمته التي كتبها سماحة العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز، ويصف ذلك بأنه خطاب إرهابي قمعي تسلطي ينبني على (الثقافة التي يغلب عليها الاتّباع والتقليد، وبنية المجتمع يغلب عليه الخوف والإذعان، وذلك في متواليةٍ

تؤجج عمليات التناص الديني السياسي الاجتماعي في لا وعي المتلقي، حيث تتجاوب المخزونات اللاشعورية الملازمة لسلطة الدولة الإرهابية وأجهزتها القمعية وعنفها اللاإنساني، والمخزونات المصاحبة للقيم الدينية، حيث الخوف من عذاب القبر والرعب من نار الآخرة...) الإسلام والحداثة، ص ٢٤.

يعبر أحدهم عن سخطه على التعليم والتأليف في بلاد المسلمين الذي قام في مجمله على الإيمان بالله واليوم الآخر، فيقول:

(خدعتنا مقاعدنا المدرسية

لم تعد النار ناراً وتلك الجنان جناناً

سوى في الكتب ...) . ثم يقول:

(سأدخل مع روحي الآن حربْ

وألقى بها في مهب الذنوب

المعدة للصالحين هناك ...

سأحيا ذنوبي هنا كلها). مجلة الناقد، العدد ٨ فبراير ١٩٨٩ م/ ١٤٠٩ هـ. ص ٣٥ من مقطوعة بعنوان (قصيدتان للحداثي الفلسطيني إبراهيم نصر الله).

أمَّا نازك الملائكة فإنها تعبر عن شكها في البعث بتقريرها أنه ليس هناك إلاّ الفناء وأنه لا حياة خالدة بعد الموت، وذلك في قولها:

(قالوا: الخلود

ووجدته ظلاً تمطى في برود

فوق المدافن حيث تنكمش الحياة

ووجدته لفظاً على بعض الشفاه

غنته وهي تنوح ماضيها وتنزله اللحود

غنته وهي تموت ... يا للإزدراء!

قالوا: الخلود، ولم أجد إلاّ الفناء) (ديوان نازك الملائكة ٢/ ٨٧).

أمَّا صلاح عبد الصبور فإنه يعبر عن عقيدته في هذه القضية العظيمة بقوله:

(وقيل لكم:

بأن حياتكم جسر، وأن بقاءكم مسطور

خطى تخطى بميقات إلى دارٍ ببابين

نطوف بها كومض شعاعة العين

وأن العاقل المبرور من يحيا بلا زاد

يجمع زاد راحلته

لأن وراء هذه الدار فيما قد رواه الناس

شطوطاً طاميات موجها ديجور

ولولا سيف نور شق ظلماها

وملاح على مركب

يقول لمن أحث الخطو في دهليزها:

اركب!

ولولا ومض مصباح يلوح لمقلة الملاح

لضل الركب في التيه سنين مئين

أقول لكم: بأن الزيف قد يقتات بالفطنة، وسقْط القول قد يعلو بأجنحة من الترديد). (ديوان صلاح عبد الصبور ص ١٦٧ - ١٦٨).

أمّا نزار قباني الممتليء ببغض الشرق والعرب والمتخم بأنواع الضلالات ؛ فإنه يجعل من التخلف الإيمان بما شرع الله وبما أخبر به عن يوم القيامة، يقول:

(في ليالي الشرق لما

يبلغ البدر تمامهْ

يتعرى الشرق من كل كرامةْ

ونضال

فالملايين التي تركض من غير نعال

والتي تؤمن في أربع زوجات

وفي يوم القيامة...).

إلى أن قال في نهاية المقطع:

(شرقنا المجتر تاريخاً

وأحلاماً كسوله

وخرافات خوالي). الأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ٣٦٧ - ٣٦٨ .

٥- الإيمان بالقدر:

ومن أظهر تطاولهم في باب القدر ما يلي:

١ - نفي وجود القدر، ونفي قدرة الله تعالى، وجعل القدر خرافة وكذباً.

٢ - ذم القدر والاعتراض عليه، وجعل الإيمان سبباً للتخلف والتحجر والمهانة والسذاجة.

٣ - التهكم والسخرية والاستخفاف بالقدر وبالمؤمنين به.

٤ – نسبة التقدير والقدر إلى غير الله تعالى، وزعم القدرة على تغيير مجرى القدر المكتوب.

٥ – نسبة الشر إلى الله عَزّ وَجَلَّ.

٦ – تبرير الرذائل والانحرافات بالقدر.

٧ – نسبة الأعمال الإرادية إلى القدر.

و ها هو أحدهم في كتابه «بحثاً عن الحداثة» يقول: (في الخرافة يتجلى ثاني أساسيات الثقافة العربية بوصفه تفسيراً للفاعلية وتعليقاً لها على وجود آخر غير منظور، وتنتشر تمثلات الخرافة تحت شتى المسميات، فهي القدر مرة، وهي الشيطان أو الكائنات الأسطورية مرة أخرى ...) بحثاً عن الحداثة لمحمد الأسعد ص ٦٦ .

ويقول الفيتوري:

(ولأنَّ القدر السيد عبد يتأله

والنبوات مظله

والديانات تعله

هب من كل ضريح في بلادي

كل ميت مندثر

كل روح منكسر

ناقماً على البشر

كل أعداء البشر

كافراً بالسماء، والقضاء والقدر). ديوان الفيتوري ١/ ١١٣.

ويقول سميح القاسم:

(كنت طفلاً، آنذاك.

علَّموني أن مجرى الأرض في كف السماء

علَّموني أنه – سبحانه - يحيى ويفني ما يشاء

علَّموني أن أطيع الأولياء

دون أن أسأل: من كانوا؟

وماذا صنعوا للتعساء؟!

علَّموني الدجل والرقص على الحبل

وإذلال النساء

علموني السحر والإيمان بالأشباح

والرقية والتعزيم

والخوف إذا جاء المساء!

علموني ما يشاؤون، ولم يستنبئوني ما أشاء

فرس الخضر .. كفيل بي

وحسبي الفقهاء!!

يا أبي المهزوم .. يا أمي الذليلة!

إنني أقذف للشيطان، ما أورثتماني

من تعاليم القبيلة!

إنني أرفضها تلك الطقوس الهمجية

إنني اجتثها من جذرها

تلك المراسيم الغبية

إنني أبصق أحقادي وعاري

في وجوه الأولياء الصالحين

إنني أركل قاذورات ذلي وانكساري

للتكايا والدراويش

وأقزام الكراسي النابـحين!

إنني أصرخ من قعر جحيمي:

يا وحلاً لصقت في نعل تاريخي العظيم

إنني أحكم بالموت عليك).

ديوان سميح القاسم المصدر السابق ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

وعند هذا الحد أتوقف لأني قد أطلت وأتيت بما يتجاوز عدد الصفحات المطلوبة، ولعله إن أتيحت فرصة أخرى أن يتم استكمال عناصر خطة هذا البحث، نسأل الله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله.